لغة الشعر في روميات أبي فراس الحمداني

بحث في التقابل اللغوي (الثنائيات المتقابلة)

د/ لخضر بلخير

جامعة الحاج لخضر – باتنة (الجزائر)

ملخص :

هذا مبحث معجمي دلالي، متعدد الصور، متعدد الأبعاد والدلالات ، يهدف إلى الكشف عن أنماط توظيف اللغة عند الشاعر أبي فراس، من حيث تجاوز الوظيفة الإبلاغية لكلماتها وتراكيبها وأساليبها ، إلى شحنها بطاقات تعبيرية جمالية مؤثرة ، تفاجئ المتلقي وتهز مشاعره وأحاسيسه ، بفضل استغلال طاقات اللغة ، ومنها " التقابل اللغوي المعجمي" وما يحققه من أثر فاعل في تشكيل درامية لغة الروميات ، ومن ثم في درامية الأحداث والمواقف التي تعبر عنها.

Abstract :

The present study of both lexical and semantic, full of images and dimensions is for goal to reveal the different types of language used by the poet : **Abu- Firas**; in terms of words, structures and strong expressions which make the reader feel and sense words . Thanks to the unique use of language energies, like the linguistic semantic juxtaposition, and what it can afford from drama in structures of the “ROMEAT” to drama in events and actions that reflect it.

Résumé :

Cette recherche lexico-sémantique multidimensionnelle vise à identifier les déférentes utilisations de la langue chez le poète : Abou Firas ; en termes de mots et de leurs structures dans sa langue, et la richesse avec l’énergie expressionniste influente sur le lecteur qui motive leurs sentiments et émotions . Tous grâce a sa façon unique d’utilises le pouvoir de la langue arabe tel que la juxtaposition lexico-linguistique et son infect dramatique sur la langue des (ROMIET) et ainsi le drame des évènements et des actions qui les exprimes.

مدخـــل :

التقابل اللغوي دراسة نصية أسلوبية ، تتقصى الأبنية اللغوية ، التي تشكلت من خلال التفاعلات والتوترات بين الواقع وبين رؤية الشاعر الخاصة، إذ هناك انطباع يختزنه العقل عن العالم ، وكلما ابتعث الشاعر هذا الانطباع ، أدى ذلك إلى مسلك لغوي ذي خواص مميزة ، ربما كان أبرز نتائجه. وهذا التقابل " اللغوي " يشكل أنساقا تكون – في العادة – أوسع وأعمق من الدلالة السريعة التي يمكن أن تطفو على سطح الخطاب الأدبي ، وهذه الأنساق تمثل بنية موازية – من حيث البناء اللغوي – لبنية الدلالة ، فيكون بينهما تماس يؤدي إلى التماثل من جهة ، كما يكون بينهما تقاطع يؤدي إلى التقابل ، وهو ما يؤدي في الغالب إلى بروز البنية الشعرية ، ثم يتنامى هذا التصور، لتتحدد علاقات التماثل والتشابه والتضاد ، على صعيد التصور الكلي للدلالة في أبعادها المتعددة.

وترجع فكرة " الثنائيات المتقابلة " أو " التقابلات الثنائية " في الدراسات اللسانية والنقدية الحديثة إلى " ليفي ستراوس Levis strauss"[1] ، فقد شغلت باله كثيرا، وسيطرت على معظم أبحاثه وتحليلاته، فيما أسماه

بالطبيعة والحضارة، فهو يرى أن الإنسان انتقل من المرحلة الطبيعية إلى المرحلة الحضارية بمجرد أن ميز وأدرك، وكان هذا الانتقال يتم بصورة تدريجية .

وينبغي، من البداية ، التفريق بين الثنائيات المتقابلة والثنائيات المتضادة، لأن التقابل "اللغوي المعجمي" إما أن يتم بالاعتماد على التضاد أو على التخالف الشبيه بالتضاد، مع ملاحظة وجود تناسب بين طرفي المتقابلين، ويكون بذلك تخالف من جهة، وتناسب من جهة ثانية، ينتهي في الأخير إلى بناء تقابلي. والمبدع ((ينطلق من خلفية ذهنية تتقابل فيها الدلالات، فينعكس ذلك في أبنية صياغية تعتمد المخالفة التي يلحظها المبدع بين المفردات، ومن ثم يستغلها شعريا في خلق تراكيب تؤدي نفس مهمة التقابل المعجمي. ثم تزيد عليه بمدى الحرية المتاحة للأديب في بناء تراكيبه اعتمادا على ملاحظاته الخاصة ، التي تكتسب فاعليتها بالتمرس على الأبنية الشعرية المختلفة .))[2]

وفي هذا الصدد يقول عبد القادر الرباعي، مبرزا الفروق الدقيقة بين التقابل والتضاد في الموقف والصور : ((فمع التقابل، يمكن أن يحدث تفاعل وامتزاج، أما المواقف المتضادة، فمن النادر أن تكون مواقف شعرية صالحة للنمو، وذلك لما يتضح للمتأمل من أن جذور " الموقفين المتقابلين" واحدة في العمق على حين أن " التضاد " ترفض فيه العناصر بعضها بعضا كما يرفض الجسد الأعضاء الغريبة عنه.))[3]

منهج البحث وهدفه:

البحث مقاربة أسلوبية، مؤسسة على قيم لغوية معجمية دلالية، غايتها التقرب من لغة الشعر عند أبي فراس ، ومن نص الروميات تحديدا ، وتقريبه من المتلقي ، من خلال مادته المعجمية في ثرائها وتنوعها وتعدد أبعادها ، بيان كيف كان التقابل اللغوي أو الثنائيات المتقابلة ، أهم الأدوات اللغوية الدلالية ن التي استعان بها أبو فراس في بناء لغة شعره ، بكل ما تحمله من خصوصية الانتقاء والأداء من واقع المعجم اللغوي الشعري ، الذي يعكس، وبواقعية شديدة ، جوهر الحالة النفسية للشاعر، ونظرته إلى الحياة ، من خلال مفهومي التغير والتحول من جهة ، والديمومة والثبات من جهة أخرى .

التقابل اللغوي في الروميات:

عندما نلجأ إلى رصد هذا الجانب من المعجم الشعري ، أعني " التقابل اللغوي " أو " الثنائيات المتقابلة " في لغة الروميات، فإننا لا نفعل ذلك من أجل بيان التقسيمات والتفريعات المعيارية التي قد لا تفيد كثيرا، بل نفعل ذلك من أجل رصد محاور الدلالة ووصفها من خلال الاستخدام الشعري الخاص، للكشف عن تجربة خاصة.

في روميات أبي فراس شواهد كثيرة لصور التقابل هذه، نبدؤها بهذه الصور المعبرة المؤثرة، يقول فيها أبو فراس ، يقصد أعداءه وخصومه :

فَكَمْ يُطْفِئُونَ الْمَجْدَ وَاللهُ مُوقِدٌ وَكَمْ يَنْقُصُونَ الْفَضْلَ وَاللهُ وَاهِبُ [4]

فالبيت يتشكل من صورة ذات طرفين متقابلين: سالب وموجب؛ أما الطرف الأول وهو السالب، فيتمثل في أعداء الشاعر وخصومه وحساده. وأما الطرف الثاني الموجب، فهو الله سبحانه و تعالى، صاحب القوة والفضل والجود. وتقابل الطرفين تقابل ضدي بين الفعلين المضارعين: (يطفئون ، ينقصون) وبين الاسمين (موقد ، واهب). وقد عمد أبو فراس في هذه المقابلة إلى الإخبار عن الطرف الثاني باسم الفاعل، لما فيه من تأكيد وقوة وثبات وديمومة.

ومن صور أبي فراس المبنية على التقابل، قوله يعتب على سيف الدولة :

وَعَيْشُ الْعَالَمِينَ لَدَيْكَ سَهْلٌ وَعَيْشِي وَحْدَهُ بِفِنَاكَ صَعْبُ
وَ أَنْتَ وَ أَنْتَ دَافِعُ كُلِّ خَطْبٍ مَعَ الْخَطْبِ الْمُلِمِّ عَلَيَّ خَطْبُ [5]

فكل بيت من البيتين يتشكل من صورة تقابلية؛ أما الأولى فيمثلها طرفان: أحدهما (موجب) يمثله عيش العالمين السهل لدى سيف الدولة، وثانيهما (سالب) يمثله أبو فراس وعيشه الصعب بقرب سيف الدولة. وأما الثانيـــة، فطرفاهـــا سيف الدولة ذاته . والتقابل في الصورة يتمثل في هذه الازدواجية التي يراها أبو فراس في سيف الدولة، فهو من جهة صاحب الفضل والحماية والرعاية والعطف قبل الأسر، ولكنه من جهة مقابلة يمثل الخطب والألم.

والصورة على بساطتها، أعمق تأثيرا وأحفل بالجمال الفني من كثير من الصور التي قد تكونأمهر منها صنعة، ولكنها تفتقر إلى بكارة تلقائيتها وعفويتها و صدقها، كما يرى علي عشري زائد [6]

ومن أشهر الصور المبينة على التقابل المعجمين ما نقرؤه في الرائية الشهيرة ، يذكر معللته:

وَفَّيْتُ وَفِي بَعْضِ الْوَفَـــاءِ مَذَلَّـــةٌ لآنسَةٍ فِي الْحَيِّ شِيمَتُهَا الْغَـــدْرُ
وَقُـــورٌ وَرَيْعَانُ الصِّبَا يَسْتَفِزُّهَـــا فَتَأْرَنُ أَحْيَاناً كَمَا يَأْرَنُ الْمُهْـــرُ [7].

والمقابلة بين الوفاء والغدر؛ فالشاعر يفي لصاحبته وهي تغدر به، هو يقبل عليها بالصدق والإخـــلاص، وهـــي تقبل عليه بالعبث والدلال ،كأنها تود أن تحيط نفسها بالمعجبين، بل المغرمين، تولهم ولا تتوله بهم، فتقوى أمام ضعفهم وذلهم و انكسارهم .

ولعل الذي زاد في وضوح هذه المقابلة وتأثيرها،ورود اللفظين المتقابلين في طرفي البيـــت؛ الأول فـــي أولـــه والثاني في آخره ، وهما موضعان يبرزان اللفظ ويشدان السمع والبصر جميعا. أما المقابلة في البيت الثاني، فتتمثـــل بين الوقار من جهة، والصبا واللهو من جهة ثانية، وقد اجتمع الأمران في تلك المحبوبة. والنتيجة النهائية، أن الشـــاعر يقدم صورة تقابلية يمثل طرفها الأول الشاعر نفسه وما يعيشه من ألم ومعاناة، وطرفها الثاني المحبوبة في لعبها ولهوها وتدللها... والقصيدة تشتمل على الثنائيات المتقابلة التالية (تقابل معجمي) = (نهي– أمر) (أذللت – الكبر) ، (الوصـــل – الموت) ، (عليمة – نكر)= (العلم – الجهل) ، (الفرار – الردى) = (الحياة – الموت).

وهذا التقابل عند أبي فراس تقابل معنوي أيضا ، يعتمد عليه اعتمادا واضحا، في رسم صوره وتشكيلها، ويبرز من خلالها مدى حسرته ومعاناته في الأسر، ويصف تقلب الزمان، وغدر الإنسان ، و تبدل أحوال من كانوا من حولـــه من الأهل و الأصدقاء ، يقول من مقطوعة كتبها إلى غلاميه : "صاف" و "منصور"، في لوم وعتاب :

يَا خَلِيلِيَّ بِالشَّآمِ أَفِيقَـــــا! هَلْ تُحِسَّانِ لِي رَفِيقـــاً رَفِيقَـــــا؟
كَثُرَ الْغَدْرُ وَالْخِيَانَةُ فِي النَّـــ سُ، فَمَا إِنْ أَرَى صَدِيقًا صَدُوقَـــا [8]

والمقطوعة ترسم صورة مؤلمة لما آلت إليه حياة الناس، صورة تقوم على طرفين متقابلين، إيجابا وسلبا؛ يمثـــل الطرف الأول الصدق والوفاء والإخلاص، ويمثل الطرف الثاني الخيانة والغدر والجفاء. وإذا كان الشاعر ينشد الطرف الأول الذي ينبغي أن يكون في الناس، إذ الأصل في الإنسان الخير وما يمثله من الصدق والحب والإخلاص والوفاء ، فإن ما يضر ويؤلم، أن يتغلب جانب الشر على الإنسان، فتغلب عليه نفسه والهوى، وتغيره الأيام والمطـــامع، فيغـــدر ويخون ويجفو ويهجر :

قَـــلَّ أَهْلُ الْوَفَاءِ، وَاتَّبَعَ النـــَّـــ سُ مِنَ الْغَـــدْرِ وَالْجَفَـــاءِ طَرِيقَـــا [9]

ويرسم أبو فراس من خلال هذه المقابلات والتناقضات، صورة تقابلية مكثفة جميلة في نهايـــة المقطوعـــة، فيقول في دهشة واستغراب :

فَاذْكُرَانِي وَكَيْفَ لاَ تَذْكُرَانِي كُلَّمَا اسْتَخْوَنَ الصَّدِيقُ الصَّدِيقَـا
بِتُّ أَبْكِيكُمَا ، وَإِنَّ عَجِيبًا أَنْ يَبِيتَ الأَسِيرُ يَبْكِي الطَّلِيقَـا (10)

إنه واقع حال أبي فراس (الأسير)، الذي يبكي غلاميه ، ومن خلال بكائهما يبكي ما فقده من حرية وسلطان وإمارة. وهذا المعنى نفسه، يتكرر عند أبي فراس في أكثر من موضع، من ذلك قوله في قصيدته "الحمامة الباكية" :

أَيَضْحَكُ مَأْسُورٌ وَتَبْكِي طَلِيقَةٌ وَيَسْكُتُ مَحْزُونٌ وَيَنْدُبُ سَالِ؟
لَقَدْ كُنْتُ أَوْلَى مِنْكِ بِالدَّمْعِ مُقْلَةً وَلَكِنَّ دَمْعِي فِي الْحَوَادِثِ غَالِ (11)

حيث تتبين المفارقة العجيبة من خلال التقابل اللفظي الصريح ، الذي يتشكل منه البيت الأول: (يضحك – تبكي، مأسور – طليقة ،يسكت – يندب ، محزون – سال). وقوله يمدح سيف الدولة ويعجب له ، من قصيدة يعزيه بها في ولده:

يَبْكِي الرِّجَالُ وَسَيْفُ الدِّينِ مُبْتَسِمٌ حَتَّى عَنِ ابْنِكَ تُعْطَى الصَّبْرَ يَا جَبَلُ؟ (12)

قد تكون الصورة التي يرسمها أبو فراس لسيف الدولة في هذا البيت، صورة بسيطة عادية، يشبه فيها سيف الدولة في صبره وتجلده، أمام هذا الحدث الجلل الذي ألم به، بالجبل القوي الثابت الذي لا يتزعزع ، ولكن هذه الصورة تكتسب قوة دلالتها وعمقها، بفضل ذلك التقابل بين الطرفين: بكاء الرجال لمصاب سيف الدولة، في مقابل ابتسامته هو، صابرا محتسبا، صامدا ثابتا كالجبل الراسخ.وقد زاد من ثراء الصورة وإيحائها، صيغة الاستفهام التعجبي الذي يفهم من الجملة المشكلة لعجز البيت.

ويتضح من خلال هذه النماذج المبنية على التقابل المعجمي والتركيبي، عنصر المفاجأة الذي يصدم فيه القارئ بتولد اللا منتظر من المنتظر، من خلال هذا اللا تناسب في الإسناد الشعري. وكلما كانت الصورة غير منتظرة، كلما كان وقعها على نفس المتلقي أشد وأعمق كما يقول ريفاتير Michael Riffaterre .[13] فالتقابل الفظي، ((وسيلة من وسائل متعددة تنشأ عن طبيعة الموقف الشعري في لحظة معينة، دون أن تكون تطعيما إضافيا بقصد تجميل الأداء الشكلي . و يرتبط التقابل اللفظي بلغة الشعر ارتباطا حميما ؛ من حيث تميزه بالتعبيرية ، و قدرته على الإيحاء وإثارة الانفعال، وتمثيل التباين السطحي و العميق في الصورة والحدث، من خلال الجمع المفاجئ المباشر بين وحدتين متقابلتين .)) [14]

ومن المقابلات المعنوية الكثيرة التي تتردد في روميات أبي فراس، ما ورد بخصوص علاقته مع سيف الدولة من ذلك مانقرأه في البيتين المواليين ، حيث يقابل بين الأحداث والمواقف، ويجمع بين المتناقضات في سبيل كسب حب سيف الدولة وعطفه:

فَإِنْ يَكُ بُطْءٌ مَرَّةً فَلَطَالَمَا تَعَجَّلَ نَحْوِي بِالْجَمِيلِ وَأَسْرَعَا
وَإِنْ يَجْفُ فِي بَعْضِ الأُمُورِ فَإِنَّنِي لأَشْكُرُهُ النُّعْمَى الَّتِي كَانَ أَوْدَعَا (15)

وإذا كان أبو فراس يكرر الشكوى والعتـــاب في معظم روميا ته ، فإنه في النهاية يتوجه إلى سيف الدولة يمدحه، ويذكر له خصاله ومحامده ، ويوثق الصلة بينهما، مهما حدث من سيف الدولة من بـــطء أو جفاء، لأن ذلك وإن وقع مرة، فقد كان معه وقبله الإسراع بالجميل والتعجيل به وبذل الخير والنعـــيم، وهـــذا مانلمســـه بوضوح في بائية له ، يقول في مطلعها:

أَسَيْفَ الْعِدَى و قَرِيعَ الْعَرَبْ عَلاَمَ الْجَفَـــاءُ وَفِيمَ الْغَضَـــبْ !؟
وَمَا بَالُ كُتْبِكَ قَدْ أَصْبَحَتْ تَنَكَّبُـــنِي مَعَ هَـــذِي النُّكَـــبْ
وَأَنْتَ الْكَرِيمُ وَأَنْتَ الْحَلِيمُ وَأَنْتَ الْعَطُوفُ ،وَأَنْتَ الْحَـــدِبْ
وَمَا زِلْتَ تَسْبِقُنِي بِالْجَمِيـــلِ وَ تَنْزِلُنِي بِالْجَنَـــابِ الْخَصِـــبْ (16)

إن هذه الصور الطباقية التي تتردد في روميات أبي فراس، لتكشف عن معرفة عميقة بالحياة وما يشـــكلها مـــن تناقضات تتمازج وتتفاعل، ويفضي بعضها إلى بعض، الأمر الذي ساعد الشاعر على تشكيل صور تجتلي فيهـــا هـــذه الأفكار الجدلية، المؤسسة على الثنائيات المتقابلة، المتضادة أو المتشابهة أو المتكاملة ،كما مر في الشواهد السابقة، وكما هو واضح في قوله :

وَتَغْضَبُ حَتَّى إِذَا مَا مَلَكْتَ أَطَعْتَ الرِّضَا وَعَصَيْتَ الغَضَبْ (17)

والتقابل المكثف في هذا البيت، تقابل معنوي أكثر منه تقابل لفظي معجمي. والبيت يرسم صورة ذات وجهين متقابلين ومتكاملين في آن واحد؛ فسيف الدولة يغضب لما يتطلب الأمر الغضب والقوة والعزم، فإذا مَلَكَ الأمر وتحكم فيه ، أطاع الرضا وعصي الغضب. وقد يكون أبو فراس اقتبس هذا المعنى واستفاده من الحديث النبوي الشريف :

(لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَـــةِ إِنَّمَا الشَّدِيـــدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْســـهُ عِنْدُ الغَضَـــبِ.) (18)

كما قد تتسع دائرة التطابق الذهني، لتشمل موقفا فكريا أو أكثر من العالم الذي ينشغل به الشاعر، يتجلى ذلـــك عندما تستبد مشاعر الغضب والقلق والحيرة والخوف، وتحيط بالذات إحاطة كلية، فتحاول الانطـــلاق والبحـــث عـــن المخرج والخلاص، ولا خلاص إلا بامتلاك ناصية الموقف الفكري، الذي يضع العالم المنشغل به بين طرفي (الرفض والقبول) :

وَقَالَ أُصَيْحَابِي: الْفِرَارُ أَوِ الرَّدَى؟ فَقُلْتُ : هُمَا أَمْـــرَانِ أَحْلاَهُمَا مُـــرُّ
وَلَكِنَّـــنِي أَمْضِي لِمَا لاَ يُعِيـــبُنِي وَحَسْبُكَ مِنْ أَمْرَيْنِ خَيْرُهُمَا الأَسْـــرُ
يَقُولُونَ لِي: بِعْتَ السَّلاَمَةَ بِالرَّدَى فَقُلْتُ : أَمَـــا وَ اللهِ مَا نَالَنِي خُسْـــرُ
وَهَل يَتَجَافَى عَنِّي المَوْتُ سَاعَةً إِذَا مَا تَجَافَى عَنِّي الأَسْـــرُ وَ الضُّـــرُّ؟
هُوَ الْمَوْتُ فَاخْتَرْ مَا عَلاَ لَكَ ذِكْرُهُ فَلَمْ يَمُتِ الإِنْسَانُ مَاحَيِـــيَ الذِّكْـــرُ (19)

وتتجلى دائرة التطابق الذهني بوضوح في عينية أبي فراس التي عاتب فيها سيف الدولة، لتأخره فـــي افتدائـــه، حيث لم يكتف فيها الشاعر بالاعتماد على توظيف التطابق المعجمي بين كثير من الكلمات: الرعاية والضياع كما فـــي قوله:

فَلَمَّا اسْتَمَرَّ الْحِبُّ فِي غُلْوَائِـــهِ رَعَيْتُ مَعَ الْمِضْيَاعَةِ الْحُبَّ مَارَعَى (20)

و الحفظ و الضياع ،كما في قوله:

أَفِي كُلِّ دَارٍ لِي صَدِيـــقٌ أَوَدُّهُ إِذَا مَا تَفَرَّقْـــنَا حَفِظْتُ وَ ضَيَّعَـــا (21)

وبين العطاء والبخل:

وَهَبْتُ شَبَابِي وَ الشَّبَابُ مَضِنَّةٌ لأَبْلَجَ مِنْ أَبْنَاءِ عَمِّي، أَرْوَعَـــا (22)

بل تجاوز ذلك إلى رصد الثنائيات التي يفرزها السياق و لو لم يتحقق فيها التضاد ، ذلك أن الكلمات عناصر قد تبدو غير موضوعية في ارتباطها بمبدعها ، لأنها تكتسب منه كثيرا من الأشكال المتعارضة أو المتقابلة.

وتستبد بالشاعر مشاعر الأسى والألم ، والخوف من المجهول الذي ينتظره وهو في الأسر، حتى يخيل إليه أن العمر قد تقدم به، وأن شبابه قد ولى وحل محله الشيب. يقول هذا ويراه، وهو لما يتجاوز الثلاثين من عمره :

وَهَا أَنَا قَدْ حَلَّى الزَّمَـــانُ مَفَارِقِي وَ تَوَّجَنِي بِالشَّيْبِ تَاجـًا مُرَصَّعَـا

فَلَوْ أَنَّنِي مُكِّنْتُ مِمَّا أُرِيـــدُهُ مِن َالْعَيْشِ، يَوْمًا، لَمْ يَجِدْ فِيَّ مَوْضِعَا (23)

والقصيدة من أولها إلى آخرها ،مبنية على الثنائيات المتقابلة تمثلها الدوال التالية:

(المضي – الرجوع) ، (الرعاية – الضياع) ، (العطاء (وهبت) – البخل (مضنة))

(الليل (أبيت) – النهار (أصبح)) ، (السرور (المسرور) – الفجيعة (المفجعا)) ، (المودة – الخيانة) ، (الشباب – الشيب) ، (الأحباب – الأعادي) ، (البطء – الاسراع) ، إلى غير ذلك من الثنائيات التي وردت على صور وكيفيات مختلفة بين المتضادة والمتخالفة والمتكاملة ؛ فإذا كان الضياع مثلا ضد الرعاية، والبخل ضد البذل والعطاء، والفجيعة والألم ضد الفرح والسرور، والعدو ضد الحبيب، فإن الليل ليس في مقابلة ضدية مع النهار، بل هو في مقابلة تكاملية معه، للزومهما معا. وشبيه بهما ما بين الشيب والشباب.

لقد أدار أبو فراس كثيرا من مقابلاته على المعاني المتناقصة، والتي يؤمن بامتزاجها وتفاعلها، من حيث قيام كثير من مظاهر الحياة وعلاقاتها على أساسها، ومن ثم كانت مقابلته في الغالب، تتشكل بالاعتماد على المخالفة بين المعاني والأفعال المتناقصة. (24)

وتمثل مقابلات أبي فراس عنصرا أساسا من عناصر البناء الشعري بل إن أبا فراس، كان كلفا بهذا اللون من المقابلات ، التي يعتمد عليها كثيرا في بناء صوره وتشكيلها. ومن هذه الصور، تلك التي يصف فيها نفسه الأصيلة الكريمة ، النفس التي لا يطغيها الغنى ، ولا يثنيها الفقر. يقول في رائيته الشهيرة ، معتمدا على ما يعرف عند البلاغيين بـ "ثنائية الإرصاد" وهي ثنائية تتصل بحاسة التوقع عند المتلقي ، حيث جعل الشاعر في صدر البيت ما يدل على عجزه :

وَلاَ رَاحَ يُطْغِينِي بِأَثْـوَابِهِ الْغِـنَى وَلاَ بَاتَ يُثْنِينِي عَنِ الْكَرَمِ الْفَقْـرُ (25)

ولم تقتصر مقابلات أبي فراس على التضاد أو المخالفة، وإن كان أكثرها من ذلك، فقد جاءت أكثر الصور مبنية على أساس العناصر المتضادة، بل ووردت مقابلات مبنية على العناصر المتوافقة المتكاملة. من ذلك قوله من القصيدة السابقة ، في فخر واعتزاز :

فأظمأ حَتَّى تَرْتَوِي الْبِيضُ والْقَـنَا وَأَسْغَبُ حَتَّى يَشْبَعَ الذِّئْبُ وَالنَّسْرُ (26)

ومحصلة المقابلة بين الظمأ (العطش) والسغب (الجوع) مقابلة اتفاق في الحرمان ، هي تلك الصور المعبرة بقوة عن فروسيته وصبره وتحمله ؛ فهو القائد الفارس الذي يحرم نفسه الماء قبل ارتواء سيفه ورمحه من دم الأعداء، كما يحرم نفسه الطعام حتى تشبع الذئاب والسباع وجوارح الطيور، عندما يكون في ميدان الطرد والصيد. وفي كلا الميدانين مهارة وفروسية ورمي وقتل.

ويندرج في محاور التخالف، ما أسماه القدماء : (طباق السلب) الذي تأتي فيه إحدى اللفظتين مثبتة والأخرى منفية. واندراج هذا النمط التركيبي ضمن أشكال التخالف ، يأتي من التركيب ذاته ، فلا يحمل تقابلا إلا من حيث السلب

والإيجاب، ثم اتصال ذلك بالمفردات، أي أن المفردات ذاتها لا تحمل نواة التقابل أو التخالف، وإنما يتم ذلك من خلال المفهوم لا المنطوق.

ومما ورد عند أبي فراس من هذا النمط ، قوله من داليته التي كتب بها إلى سيف الدولة أول ما أسر:

نَضَوْتُ عَلَى الأَيَّامِ ثَوْبَ جَلاَدَتِي وَلَكِنَّنِي لَمْ أَنْضُ ثَوْبَ التَّجَلُّدِ (27)

فالفعل (نضوت) في أول البيت ورد مثبتا، وقابله في الشطر الثاني الفعل نفسه، ولكن بصيغة النفي (لم أنض) ، فحدث بينهما طباق في اللفظ والدلالة، إيجابا وسلبا.

ومن ذلك أيضا ، قوله من قصيدة يعزي فيها سيف الدولة في أخته، ويصف حاله:

أَبْكِي بِدَمْعٍ لَهُ مِنْ حَسْرَتِي مَدَدٌ وَأَسْتَرِيحُ إِلَى صَبْرٍ بِلاَ مَدَدِ (28)

والمقابلة قائمة بين : (دمع له مدد) و (صبر بلا مدد)؛ فقد وصف الدمع بجملة وصفية مثبتة، ووصف في المقابل الصبر بجملة وصفية منفية؛ أما الطرف الأول من هذه الصورة ففيه دلالة على شدة الحزن والوجد وأثر الفاجعة فالشاعر يبكي الفقيد المحبوب (أخت سيف الدولة) بكاء لا يعرف التوقف والانقطاع. وأما الطرف الثاني، ففيه بيان حال الشاعر، حاله في مقابل الحال الأول، حال من يتعزى بالصبر فلا يجد المدد الذي يكفيه، لأن صبره مقطوع غير موصول، خلافا لبكائه الدائم المتواصل .

خـــاتمة

يخلص هذا البحث إلى أن دراسة التقابل اللغوي في شعر أبي فراس الحمداني، وفي ضوء العلاقات القائمة بين الثنائيات المتقابلة ، إيجابا أو سلبا ، قد أتاحت لنا الكشف عن كنه الفاعلية الشعرية وحركيتها في كثير المواقف والصور الشعرية ، التي تميز شعر أبي فراس عامة ، ورومياته خاصة. وكانت تلك الفاعلية الشعرية ، في جوهرها ، مستمدة من تجربة الشاعر في الحياة ، على قصر أمدها، وفهمه للوجود الإنساني في هذا الكون ، المبني على علاقات تقابلية ن متشابهة متكاملة حينا ، ومتعارضة متنافرة أحيانا أخرى كثيرة.

كان أبو فراس يعتمد ، في رسم مختلف صور العلاقات التي تربطه بالآخر ، على مجموعة مما يسمى " المحسنات " من أهمها التقابل اللفظي (الطباق) ، وهو عنده أبعد من أن يكون حلية أو زينة شكلية، بل هو عنصر أساس من عناصر تشكيل الصورة وتجلية غموضها. وحين بنى أبو فراس صوره على المقابلة والطباق ، فإنما ليستخلص من جدلية عناصرها فكرة حميمة عن علاقته بالناس من حوله.

لقد تمثلت لغة أبي فراس ، وفي روميا ته على وجه الخصوص ، حركتان أساستان ؛ حركة التناغم والتكامل ، التي تبرزها علاقته بأمه وابن عمه سيف الدولة ، بالدرجة الأولى ، ثم علاقته ببعض الخلصاء الأوفياء من أهله وأحبائه وأصدقائه، ممن رعوا القربى والمودة والصداقة والوفاء ، وإن شاب ذلك شيء من السلبية أحيانا. وحركة ثانية يغلب عليها التعارض والتناقض والتضاد، وتبرزها أشعاره في أعدائه وخصومه من الأباعد ، بل ومن بعض أهله وأقاربه ، من الحاقدين والحاسدين والوشاة، ممن باعوا الضمائر والأنفس ، وفرطوا في المبادئ ، جريا وراء مآرب شخصية رخيصة.

كان لبنية الثنائيات أثرها البالغ والفاعل في تشكيل لغة أبي فراس، ومن ثم في درامية المواقف والأحداث المعبر عنها ، كما كان لها أثرها الواضح في تحقيق شاعرية تلك اللغة المتميزة ، بنقلها من المستوى السطحي إلى المستوى العميق، في غالب الأحيان، ومن البعد الواحد إلى الثنائيات المتعددة ، كما كانت من جهة ثالثة مظهرا من مظاهر الشعرية المعبرة والمؤثرة، في مستوييها : الشكلي الغنائي، والدلالي الموضوعي.

وانطلاقا من الثنائيات التي بنى عليها أبو فراس شعره عامة ، ورومياته خاصة ، في مختلف المستويات اللغوية؛ الصوتية والتركيبية والمعجمية الدلالية، يمكن أن نلاحظ ، وبوضوح ، ازدواجية المعجم الشعري ؛ بين لغة

يغلب عليها طابع الحضارة الجديدة ، لغة فيها من السهولة والبساطة والوضوح ، وتلك ميزة القسم الأكبر من شـــعره ، ومن روميا ته على وجه الخصوص ، وبين لغـــة هي أقرب إلى لغة البداوة ، وما تتصف به مـــن فخامـــة وصـــلابة ووعورة ، بل وغرابة أحيانا. ومرد هذه الازدواجية، تمكن أبي فراس من المعجم اللغوي تمكنا واسعا، جمع فيـــه بـــين الثقافة اللغوية المستمدة من المراحل الزمنية السابقة لعصره: الجاهلية والإسلامية والأمويـــة، وبـــين الثقافـــة اللغويـــة المعاصرة له، وما يطبعها من ثراء وتنوع وتجدد.

الهوامـــش :

(1) ولد ليفي ستراوس في بروكسل ،عام 1908 ، درس الحقوق بباريس وتخصص بالفلسفة والأدب ، اشتغل أستاذا بجامعة مون دو مارســـان Mont de marsan ، وسان باولو ونيويورك ، أستاذ كرسي الانتروبولوجيا الاجتماعية منذ 1959 في الكولاج دي فرانس ، اهـــتم بدراســـة الفكر البشري . انظر: في معرفة النص، د/ يمنى العيد ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط 3 1985، ص293.

(2) بناء الأسلوب في شعر الحداثة (التكوين البديعي) ، د/محمد عبد المطلب ،دار المعارف، مصر، ط2 1995، ص233.

(3) طاقة اللغة وتشكيل المعنى في قصيدة الربيع لأبي تمام ، مجلة فصول ، م1 ع4 ، يوليو 1981 ، ص71.

(4) ديـــوان أبي فراس الحمداني، شرح : خليل الدويهي ، دار الكتاب العربي، بيروت ، ط 4 1999 ، ص41.

(5) المصدر السابق، ص 49.

(6) انظر مقالته : الصورة الفنية في قصيدة أبي فراس الحمداني ، (دورة أبي فراس) ،مؤسسة جائزة عبد العزيـــز ســـعود البـــابطين للإبـــداع الشعري، الكويت – 2000، ص116.

(7) الديوان، ص163.

(8) نفســـه ، ص225

(9) نفســـه ، ص225.

(10) نفســـه ، ص225 ، 226.

(11) نفســـه ، ص282.

(12) نفســـه ، ص245.

(13) انظر: الأسلوبية والأسلوب ، ص81 . **ريفاتير:** ناقد وباحث أمريكي معاصر، من النقاد الأسلوبيين يركز كثيرا على تحديد الـــنص ولـــه أثر في المنهج التحليلي الشكلي، وهو لا يستهدف معيار جمال بل إيضاح الآلية المولدة للجمال، له مجموعة من الدراسات في الأسلوبية البنيويـــة نشر قسما منها باللغة الفرنسية، ونقل الباقي عن الإنجليزية إلى الفرنسية. انظر ترجمته: في معرفة النص، يمنى العيد ، ص292.

(14) إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي، د/ محمد العبد ، دار المعارف ، مصر ، ط1 1988 ، ص 69 .

(15) نفســـه ، ص28.

(16) الديـــوان ، ص210.

(17)نفســـه ، ص24.

(18) انظر :شرح صحيح مسلم،ج ع، تح: فؤاد عبد الباقي،دار إحياء الكتب العربية،القاهرة،(دط) (دت) ص 2014.

(19) الديـــوان ، ص165.

(20) نفســـه ، ص208 .

(21) نفســـه ، ص209.

(22) نفســـه ، ص208.

(23) نفســـه ، ص209.

(24) انظر: أبو فراس الحمداني الموقف والتشكيل الجمالي ، النعمان القاضي ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة (د ط) ، ص463.

(25) الديـــوان ، ص164.

(26) نفســـه ، ص164.

(27) نفســـه ، ص96.

(28) نفســـــه ، ص111.